الباب السادس

المرأة كريمة، منفقة!!

الفصل الأول

حديث القرآن الكريم عن الإنفاق

تحدث القرآن الكريم عن الإنفاق في أكثر من سبعين موضعاً ، ليدل علىٰ أهميته في حياة الفرد والجماعة ، ولو استعرضنا جميع تلك الحالات لوجدناها لا تختص بالذكورة دون الإناث ، إنما هي خطاب عام للإناث وللذكور ، من ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ [الحديد : ١٠] .

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبا : ٣٩] .

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ٢٦٢] .

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

ومنها قوله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

وفي السنة النبوية الشريفة أحاديث كثيرة تحض المسلم ـ ذكراً أو أنثىٰ ـ علىٰ السخاء والإنفاق والكرم ، من ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه من أن رسول الله ﷺ قال : « السخيّ قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، ولجاهل سخيٌّ أحب إلىٰ الله تعالىٰ من عابدٍ بخيل »[1] .

وروىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ صعد المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه ، وقال :

« يا أيها الناس ، إن الله قد اختار لكم الإسلام ديناً ، فأحسنوا صحبة الإسلام بالسّخاء وحسن الخلق ، ألا إن السخاء شجرة من الجنة وأغصانها في الدنيا ، فمن كان منكم سخياً لا يزال متعلّقاً بغصنٍ منها حتىٰ يورده الله الجنة ، ألا إن اللؤم شجرة في النار وأغصانها في الدنيا ، قال مرتين : السخاء في الله ، السخاء في الله »[2] .

وروىٰ عبد الله بن مسعود وأبو هريرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل علىٰ بلال رضي الله عنه وعنده صُبر[3] من تمر فقال :

« ما هذا يا بلال ؟ »

قال : أعدُّ ذلك لأضيافك .

---

(١) رواه الترمذي رقم ١٩٦٢ في البر والصلة ، باب ما جاء في السخاء .
(٢) أخرجه ابن عساكر : [كنز العمال : ٣/ ٣١٠] .
(٣) جمع صُبرة ، وهي ما جمع بلا كيل أو وزن .

قال : « أما تخشىٰ أن يكون لك دخان في نار جهنم ، أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً » .

وقد سطر التاريخ أحداثاً ووقائع وقصصاً عن إنفاق المسلمين ـ نساءً ورجلاً ـ ، وما يهمنا هنا هو إنفاق المسلمات ، لذلك سنورد بعضاً من ذلك :

* * *

الفصل الثاني

نماذج من إنفاق أمهات المؤمنين

عرف عن أمهات المؤمنين السخاء والإنفاق ، حتىٰ لو كان بهنّ خصاصة ، من ذلك ما رواه البخاري ومسلم بالسند المتصل إلىٰ عائشة رضي الله عنها قالت :

قال رسول الله ﷺ : « أسرعكن لحاقاً بي أطولكنَّ يداً » .

قالت : فكنَّ يتطاولن أيتهنَّ أطول يداً ، وكانت أطولنا يداً زينب ، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدَّق .

وفي رواية أخرىٰ : فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمدّ أيدينا في الجدار نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتىٰ توفيت زينب بنت جحش ، وكانت امرأة قصيرة ، ولم تكن بأطولنا ، فعرفنا حينئذٍ أن النبي ﷺ إنما أراد طول اليد بالصدقة ، وكانت زينب امرأة صَناع اليدين ، فكانت تدبُغ .

ـ وفي ترجمة زينب بنت جحش رضي الله عنها ، يقول الإمام ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

قالت برَّة بنت رافع : لما خرج العطاء ، أرسل عمر رضي الله عنه إلىٰ زينب بالذي لها ، فلما أُدخل عليها قالت : غفر الله لعمر ، غيري من إخواني كان أقوىٰ علىٰ قسم هذا مني! قالوا : هذا كله لك ، قالت :

سبحان الله! واستترت منه بثوبٍ وقالت : ضعوه ، واطرحوا عليه ثوباً .

ثم قالت لي : ادخلي يدك فاقبضي منه قبضة ، فاذهبي بها إلىٰ بني فلان ، وبني فلان من أهل رحمها وأيتامها ، حتىٰ بقيت منه بقية تحت الثوب ، فقال لها برَّة : غفر الله لك ، يا أم المؤمنين ، والله لقد كان لنا في هذا حق .

قالت : فلكم ما تحت الثوب ؟

قالت : فوجدنا ما تحته خمسة وثمانين درهماً ، ثم رفعت يدها إلىٰ السماء فقالت : اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا ، فماتت!!

ويتابع ابن حجر قوله :

قالت زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين حين حضرتها الوفاة :

إني قد أعددت كفني ، وإن عمر رضي الله عنه سيبعث إليّ بكفنٍ ، فتصدقوا بأحدهما ، وإن استطعتم أن تصدَّقوا بحقوي[1] فافعلوا[2]!!

ـ وهكذا كان حال أم المؤمنين سودة رضي الله عنها ، حيث أخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين : أن عمر رضي الله عنه بعث إلىٰ سودة بغرارة[3] من دراهم ، فقالت : ما هذه ؟ قالوا : دراهم ، قالت : في غرارة مثل التمر ، فأمرت بتفريقها[4]!!

ـ وأما السيدة عائشة رضي الله عنها فكان لها باع طويل في ذلك :

من ذلك ما نقله الإمام ابن الجوزي رحمه الله : عن عطاء قال : بعث

---

(١) أي : الإزار الذي يكون علىٰ الخَصر .
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة : ٤/ ٢٥٤ و٣١٥
(٣) أي : كيس كبير يوضع فيه القمح ونحوه .
(٤) حياة الصحابة للكاندهلوي : ٢/ ٢٣٦ .

معاوية إلىٰ عائشة بطوقٍ من ذهب فيه جوهر قُوّم مائة ألف ، فقسمته بين أزواج النبي ﷺ .

ومن ذلك ما روته أم ذرَّة ـ وكانت تغشىٰ عائشة رضي الله عنها ـ قالت : بعث إليها عبد الله بن الزبير بمالٍ في غرارتين ، قالت : أراه ثمانين ومائة ألف ، فدعت بطبقٍ ، وهي يومئذٍ صائمة ، فجلس تقسمه بين الناس ، فأمست وما عندها من ذلك درهم ، فلما أمست قالت :

يا جارية ، هلمّي فطري ، فجاءتها بخبزٍ وزيتٍ!!

فقالت لها أم ذرة : أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهمٍ لحماً نفطر عليه ؟

فقالت لها : لا تغضبي ، لو كنت ذكَّرتني لفعلت[1]!!

ـ ويروي الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ والإمام البخاري أيضاً عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه قال : ما رأيت امرأتين قط أجود من عائشة وأسماء رضي الله عنها ، وجُودُهما مختلف :

أما عائشة رضي الله عنها فكانت تجمع الشيء ، حتىٰ إذا اجتمع عندها قسَّمت .

وأما عائشة ، فكانت لا تمسك شيئاً لغد[2]!!

* * *

(١) صفة الصفوة : ٢/ ٣٠ .

(٢) صفة الصفوة : ٢/ ٥٩ .

الفصل الثالث

نساء مؤمنات في طريق الإنفاق والعطاء

وقد سار علىٰ هذه الخطىٰ الكثيرات من النساء المؤمنات القانتات :

ينقل الإمام ابن حبان البستي ـ رحمه الله ـ هذه القصة فيقول : قال محمد بن سليمان القرشي : بينما أنا أسير في طريق اليمن إذا أنا بغلام واقف علىٰ الطريق في أذنيه قرطان ، وفي كل قرط جوهرة يضيء وجهه من ضوء تلك الجوهرة ، وهو يمجِّد ربه بأبيات من شعر ، فسمعته يقول :

مليكٌ في السماء به افتخاري عزيز القدر ليس به خفاءُ

فدنوت إليه ، فسلَّمت عليه ، فقال : ما أنا برادٍّ عليك سلامك حتىٰ تؤدي من حقي الذي يجب لي عليك ، قلت : وما حقك ؟

قال : أنا غلام علىٰ مذهب إبراهيم الخليل ، لا أتغدَّىٰ ولا أتعشَّىٰ كل يومٍ حتىٰ أسير الميل والميلين في طلب الضيف .

فأجبته إلىٰ ذلك ، قال : فرحّب بي ، وسرت معه حتىٰ اقتربنا من خيمة شَعر ، فلما قربنا من الخيمة صاح : يا أختاه .

فأجابته من الخيمة : يا لبَّيكاه ، قال : قومي إلىٰ ضيفنا ، فقالت : اصبر حتىٰ أبدأ بشكر المولىٰ الذي سبب لنا هذا الضيف!

وقامت ، وصلت ركعتين شكراً لله ، قال : فأدخلني الخيمة ، وأخذ

شفرة فذبح شاة ، قال : وكنت أسارق الجارية النظر . وكانت حسنة الوجه جميلة . . فلما رأتني قالت : أما علمت أنه قد نُقل إلينا عن صاحب يثرب ﷺ أنه قال : زنا العينين النظر .

قال : فلما كان وقت النوم ، بتُّ أنا والغلام خارج الخيمة ، وباتت هي في الخيمة ، قال : فكنت أسمع دويَّ القرآن الليل كله أحسنَ صوتٍ يكون وأرقَّه . فلما أن أصبحت قلتُ للغلام : صوت من كان ذلك ؟

قال : تلك أختي تحيي الليل كله إلىٰ الصباح .

فقلت : يا غلام ، أنت أحق بهذا العمل من أختك ، أنت رجل وهي امرأة!!

قال : فتبسم ، ثم قال : ويحك يا فتىٰ ، أما علمت أنه موفق ومخذول[1] .

* وينقل ابن خلكان في ترجمة زبيدة أم الأمين فيقول :

أنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الرَّاوية عندهم بدينار ، وأنها أسالت الماء عشرة أميال بحطِّ الجبال ونحوت الصخور ، حتىٰ غلغلته من الحلِّ إلىٰ الحرم ، وعملت عقبة البستان ، فقال لها وكيلها : يلزمك نفقة كثيرة ، فقالت : اعملها ولو كانت ضربة فأس بدينار .

فبلغت النفقة عليه ألف ألف وسبعمائة دينار (١٧٠٠٠٠٠٠) ورآها عبد الله بن المبارك في المنام فقال لها : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لي بأول معول ضُرب في طريق مكة[2] .

* وينقل الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ كثيراً من تلك القصص ، منها : قال هشام بن حسان :

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (بتصرف) : ٢٥٩ .

(٢) وفيات الأعيان : ٢/ ٣١٥ .

خرجنا حجاجاً ، فنزلنا منزلاً في بعض الطريق ، فقرأ رجل كان معنا هذه الآية : ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر : ٤٤] فسمعت امرأة ، فقالت : أعد رحمك الله ، فأعادها ، فقالت : خلّفتُ لي في البيت سبعة أعبُدٍ ، أشهدكم أنهم أحرار لكل باب واحد منهم!!

. . . . وكتب عبدة بن أبي لبابة إلىٰ شريك يقال له الحسن بن الخزّار : ادفع ثلاث مائة درهم إلىٰ أحوج أهل بيت بمكة .

فسأل ، فدُلَّ علىٰ بيت ، فوقف بهم ، فخرجت إليه امرأة كبيرة حسنة السمت ، فقال لها : بُعث إليّ بثلاث مائة درهم ، وأُمرت أن أدفعها إلىٰ أحوج أهل بيتٍ بمكة .

فقالت المرأة : إن كنت أمرت بهذا فما نحن هم ، وما لنا فيها من حق ، وأنا أعرف أهل بيتٍ أحوج منا!!

فسألها فدلَّته عليهم ، فأعطاهم الدراهم ، وكتب إلىٰ عبدة يخبره بحال المرأة ، فكتب عبدة إليه : أن أضعفها ، أعطها ستمائة درهم[1] .

. . . وفي ترجمة حياة (أم البنين) ابنة عبد العزيز بن مروان أمور غريبة ، من ذلك قولها :

ما حسدت أحداً قط علىٰ شيء إلا أن يكون ذا معروف ، فإني كنت أحب أن أشركه في ذلك .

وكانت تقول : جُعل لكل قومٍ نهمة في شيء ، وجعلت نهمتي في البذل والإعطاء ، والله للصِّلة والمواساة أحبَّ إليّ من الطعام الطَّيبّ علىٰ الجوع ومن الشراب البارد علىٰ الظمأ .

وكانت تقول : أفٌّ للبخل ، لو كان قميصاً ما لبسته ، ولو كان طريقاً

---

(١) صفة الصفوة : ٢/ ٣٩ و٢٨٠ .

ما سلكته . وكانت تعتق في كل جمعة رقبةً ، وتحمل علىٰ فرسٍ في سبيل الله تعالىٰ[1] .

. . . وروىٰ الإمام البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال :

كانت منا امرأة تجعل في مزرعة لها سِلْقاً ، فكانت إذا كان يوم الجمعة تنزع أصول السلْقِ ، فتجعله في قِدْرٍ ، ثم تجعل قبضةً من شعير تطبخه ، فتكون أصول السلق عَرْقه .

قال سهل : كنا ننصرف إليها بعد صلاة الجمعة فنسلّم عليها ، فتقرّب ذلك الطعام إلينا ، فكنا نتمنىٰ يوم الجمعة لطعامها ذلك[2] .

. . . تلكم بعض نماذج من حياة الصحابيات والتابعيات ومن سار علىٰ هذا الدرب ، ولم ننقل إلا بعضاً منها ، لنتبين حقيقة ساطعة وهي : أن النساء برزن في هذا المجال ، وقد سبقن كثيراً من الرجال ، لأنه لا فرق في من يقوم بالأعمال ، سواءً كان ذكر أو أنثىٰ ، والمهم هو العمل ذاته ، فإن كان حسناً كان القائم به كذلك ، وإن كان سيئاً كان كذلك . . .

* * *

(١) صفة الصفوة : ٤/ ٣٠٠ .

(٢) حياة الصحابة : ١/ ٣٢٣ .